الرابطة بين ذريعة كشمير

وذريعة العمليات الاستشهادية في فلسطين

ما هذه المهازل المتواصلة التي تفتقد الطرافة وتبعث على الملل والغم؟

كم مبعوثا قدم إلينا ثم انصرف، وكم تصريحا أعلن عقب انصراف المبعوثين أن كل شيء بقي على حاله وأن المطلوب من المجتمع الدولي تحمل مسؤولياته؟

يشهد الله أنني سمعت في إحدى المناسبات القريبة طفلا من أطفالنا في سن العاشرة يقول لمن حوله لدى ظهور إحدى الشخصيات الرسمية على شاشة التلفزيون، وذلك بعد انصراف أحد المبعوثين ووقوف الشخصية الرسمية تلقي بتصريح إعلامي: سيقول كذا وكيت.. وإذا بالرجل يردد الكلمات التي تنبأ بها الطفل، بالحرف الواحد تقريبا. فهل هناك غرابة في هذا الملل الذي باتت تثيره فينا (دويخة) الغادين والرائحين، الأمريكان والأوروبيين، وأبناء منطقتنا الآخرين، الذين يتقاطرون علينا زرافات ووحدانا منذ سنوات طوال، دون أن يكون هناك جديد غير الكلام العائم عن السلام والمفاوضات؟

ما الذي يقوله هؤلاء المبعوثون في الغرف المغلقة؟ كيف وجدوا وكيف وجد المبعوثون من قبلهم طوال القرن العشرين الماضي كلاما يغطي هذه الآماد الزمنية كلها دون أن تثمر تلك الجلسات أي شيء في مصلحة الفلسطينيين أصحاب الوطن والأرض الذين لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله؟ هل يوجد في الصراع العربي ـ الإسرائيلي ينبوع من الكلام والحديث الذي لا ينقطع؟ هل يبحث المتكلمون عن الحقيقة أم يخترعونها؟ أم هم مقاولون لإشغال الوقت بأي شكل وعلى أي نحو مقابل الأجر الذي يتقاضونه؟

مرت أيام، بل أعوام، كان فارس الحلبة فيها دينيس روس، المبعوث الأمريكي إلى الشرق الأوسط، الذي نجح طيلة تلك الأعوام في أن لا يقول شيئا مفيدا، والذي لم نحص عدد المرات التي حضر فيها إلى فلسطين وعدد المرات التي قام فيها بجولات في المنطقة، وها نحن اليوم نرى وجوها جديدة: رأينا السيناتور المتقاعد جورج ميتشيل وفي معيته الرئيس التركي المتقاعد سليمان ديميريل والجنرال المتقاعد أنتوني زيني ونائب الرئيس الحاقد تشيني ووزير الخارجية المضغوط كولن باول، ونرى السفير المتجول وليام بيرنز والوزير الألماني طالب النجاة من تهمة معاداة السامية يوشكا فيشر وسكرتير الناتو السابق خافيير سولانا وغيرهم من وزراء خارجية الدول الاسكندنافية الباحثين لدولهم عن أدوار في الشرق الأوسط وغيرهم وغيرهم. وسنرى قريبا رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية جورج جون تينيت الساعي إلى تقسيم دول الشرق الأوسط حسب خريطة تكمل ما بدأه سايكس وبيكو بعد الحرب العالمية الأولى عقب هزيمة الدولة العثمانية، وذلك على أساس أن الدول العربية كلها منيت بالهزيمة إثر حرب الخليج عام ١٩٩١ (مع أن المفهوم أن تلك الحرب استهدفت العراق وحدها، وأن الدول العربية الأخرى كانت في صف الحلفاء المنتصرين)!

وبينما لا ينقطع سيل الزوار عن الرئاسة الفلسطينية، على اختلاف رتب أولئك الزوار وتنوع بلدانهم وتواريخ مجيئهم وانصرافهم، تستمر الدبابات الإسرائيلية في اجتياحها أو تغلغلها في مدن الضفة الغربية وقراها، يوما بعد يوم، ومرة بعد مرة، في مشهد مذل، لا للفلسطينيين الذين يكابدون تغلغل النصل الإسرائيلي في أحشائهم وحسب، بل للوسطاء العرب خاصة، الذين تقع الاجتياحات أثناء لقاءاتهم بشارون وهز الأيدي معه في صور تنقلها وكالات الأنباء وتوزعها في القارات الخمس!

والآلة العسكرية الإسرائيلية ماضية في محو جميع ما تبقى من اتفاق أوسلو. وقد أعادت عقارب الساعة فعلا إلى الوراء إلى زمن الإدارة المدنية. بل إن رئيس الأركان الإسرائيلي يريد إعادتها إلى زمن الإدارة العسكرية المباشرة، مزايدا على شارون نفسه. أي أن الأمر الواقع الذي فرضه شارون على الأرض قد جرى ويجري بينما البازار السياسي دائر دون توقف كأن هناك شيئا جديا وراء هذه المهزلة المملة المؤسية.

<u>من الأطلسي إلى حدود الصين:</u>

واللعبة أمريكية في المقام الأول. وهي خطة محبوكة: لوضع الأهداف التي جرى الاتفاق عليها بين بوش وشارون أثناء الزيارات العديدة من قبل (رجل السلام) شارون إلى (رجل السلام الأكبر) بوش في البيت الأبيض. وبموجب تلك الخطة السرية في جوانبها الأخطر تستمر معركة الطرفين ضد الإرادة الشعبية والأماني والمقدرات والقوى الفلسطينية في نطاق الحرب الشاملة ضد المنطقة الإسلامية من أفغانستان شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا.

وتجب الإشارة خاصة إلى أن ما يجري بين الهند والباكستان ليس منقطع الصلة بما يجري في فلسطين. وقد سبق أن تنبأنا بأن الباكستان ذات أولوية في جدول الأهداف التي جرى اتفاق التنسيق الأمريكي - الإسرائيلي على ضربها. وأشرنا إلى أن شارون سبق أن تحدث عن عقيدته العسكرية الاستراتيجية التي ترى أن المجال الحيوي الاستراتيجي لإسرائيل يجب أن يمتد بفاعلية إلى ما وراء الدول العربية شرقا، ليصل إلى الباكستان وأفغانستان. والمراقبون الخبراء بشؤون الصراع في كشمير يقولون بوضوح إن حدة الأزمة المتفاقمة حاليا بين البلدين مفتعلة إذ إن حدوث احتكاكات أو عمليات قصف متبادل ليس بالأمر الجديد. وعلى الرغم من نفي الجانب الباكستاني لأية نوايا أو مجرد خواطر لاستخدام الأسلحة النووية، فإن الجانب الهندي الذي تؤزه الولايات المتحدة وإسرائيل ماض في التهويل والحديث عن الإرهاب الباكستاني، متهما برويز مشرف بالوقوف وراء الإرهاب! وتزيد الولايات المتحدة وبريطانيا الموقف تهويلا بواسطة إعلانها عن سحب رعاياها من الباكستان والهند، كأن الحرب النووية قاب قوسن أو أدنى.

وهنا مربط الفرس! ونحن وإن كنا لا نعرف ما السيناريو القادم في شبه القارة الهندية، فإننا نحس، بالبداهة ربما، أن المخطط الأمريكي الإسرائيلي متجه نحو تجريد الباكستان من قدراتها النووية بشكل أو بآخر، تحت ذريعة الخوف من سوء استخدام حكومة مشرف لتلك القدرات، وفي إطار الحرب ضد الإرهاب، وهي المعزوفة التي تدرب المسؤولون الهنود من حزب جاناتا الهندوسي المتطرف على مسايرة الإسرائيليين والأمريكيين في عزفها كل صباح ومساء. وبرويز مشرف لم يشفع له ارتماؤه حتى الآن في أحضان السياسات الأمريكية ضد أفغانستان، فالمطلوب منه في نهاية المطاف هو تسليمه المفاعل النووي الباكستاني للبعثة العسكرية الأمريكية لكي تبدأ بالإشراف على المفاعل وتنتهي بتجريد الباكستان من قنبلتها.

"من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه" كما جاء في الأثر.

ويجب التمييز بين الأسباب الحقيقية وبين الذرائع، لاسيما في عالمنا المعاصر، الذي ابتدع فيه الغرب عامة وأمريكا خاصة بدعة قيام الأجهزة المخابراتية وأذرعتها التنفيذية بإدارة سياسات الدول وتحريك الدمى. فتسلل مقاتلين كشميريين أو قيام طرف من الطرفين بعمليات ضد الطرف الآخر في تلك المناطق، بما في ذلك تبادل القصف بين العسكر على جانبي الحدود، ليس بالأمر الجديد. ولكنها الآن مجرد ذريعة لمزيد من تدخل الأمريكيين في المؤسسة النووية الباكستانية، بغرض تأمين إسرائيل من خطر محتمل مهما كان ضئيلا وبعيد المدى.

والمثل مع الفارق - قائم في فلسطين! فالعمليات الاستشهادية ليست جديدة. ونحن نتذكر أن رائد الريفي قام بعمليته الاستشهادية في يافا مستخدما السيف قبل قيام السلطة الفلسطينية، أي في زمن الاحتلال الكامل لجميع الأراضي الفلسطينية. وهذا غير الشهيد الآخر الذي نسيت اسمه، والذي نفذ عمليته بواسطة مغالبة سائق الباص الإسرائيلي على مقود الباص، وبالتالي تسبب في تدهور الباص في الوادي على طريق القدس - القسطل. وهذا غير عمليات أخرى يصعب استحضارها في الذهن. فالعمليات الاستشهادية اليوم ليست إلا ذريعة شارون لشطب نصوص أوسلو ولفرض خريطته التي تبتلع ما بقي من أراضي الضفة الغربية وتحشر ما بقي من الفلسطينيين في معازل أشبه بمبيت العمال المكرسين للعمل لدى أسيادهم. فلا مستقبل للفلسطينيين أهل الأرض إلا في خدمة المستوطنين اليهود.

إنهم يجعلون مسألة الصراع بين الهند والباكستان اليوم في واجهة الأحداث. وفي حين تتصدى الولايات المتحدة لدور الشرطي والقاضي والموكل بالتنفيذ في شتى القضايا وفي جميع البلدان فإنها لم تبذل الجهد المنتظر لجمع رئيس وزراء الهند ورئيس الباكستان في مسعى حميد للمصالحة بين البلدين النوويين الجارين.

أما وساطة روسيا فتبعث على الريبة، لأن علاقات روسيا ليست على حد سواء مع البلدين. فبينما هي

مرتبطة باتفاقيات صداقة وتعاون مع الهند، فإن تاريخ علاقتها مع الباكستان مدموغ بدور الباكستان في دعم المجاهدين الأفغان في حربهم ضد القوات الروسية في أفغانستان قبل سنوات غير بعيدة. ولعل روسيا كانت جديرة بلعب دور رشيد في السياسات الآسيوية لو لم تكن لديها هي الأخرى عقدة الإسلام والمعركة مع الشيشان.

بقيت الصين التي اقتضت ضرورات الجغرافيا السياسية والاعتبارات الاستراتيجية أن تكون الباكستان من محاور اهتمامها الرئيسية، نظرا لتلك الضرورات والاعتبارات من ناحية ونظرا لطابع العلاقات غير الودية بين الصين والهند من ناحية أخرى.. غير أن الصين في هذا الدور التاريخي لا تتكلم ولا ترى ولا تسمع. ومع إحساسنا بأن هذا الخرس والعمى والصمم مؤقت، وأن علاقات الصين مع كل من إسرائيل وأمريكا لا يمكن أن تبقى طبيعية في ظل شراهة الطرفين للأسواق ومع الشراهة غرور القوة الذي ركبهما، فإن العالم سيبقى تحت رحمة غرور القوة والظلم حتى يقتنع الروس والصينيون بأن إسرائيل ليست دولة آسيوية كما تحاول أن تتظاهر، وحتى تقيما فيما بينهما ـ بوصفهما الدولتين الآسيويتين الأقوى والأكبر ـ التحالف الوطيد الذي يقول العقل إنه ممكن ومطلوب وضروري لصالح العالم وصالح العدل والسلام وصالح قارة آسيا.